طبُّ المصريين القدماء

لجناب الدكتور غرانت بك

الطب هو العلم الوحيد الذي يمتد تاريخهُ مدة ستة آلاف سنة بدون انقطاع . فقد جاء في اخبار المصريين القدماء ان الههم توت (وهو بمثابة الاله هرمس عند اليونان وعطارد عند الرومان) قد ألَّف كتبهم المقدسة الاثنين والاربعين وستة من هذه الكتب في صناعة الطب وبها كان المحنطون يرتشدون في تحنيط الموتى . وقد قيل ان السبب الحقيقي لتحنيط الموتى عند قدماء المصريين هو اعتقادهم برجوع النفس الى الجسد ثانيةً . وعندي ان هذا القول خطأٌ من مؤرخي اليونان الذين اضلهم الكهنة المصريون لانهم لم يريدوا ان يطلعوهم على اسرار ديانتهم

فقد كان المصريون الاقدمون يعتقدون ان الانسان مركَّب من ثلاثة جواهر الجسد الجسماني ويسمونهُ "ساهو" والجسد الروحاني ويسمونهُ «كا» ومعناهُ المزدوج والنفس ويسمونها «با» ويدلون على البا او النفس بصورة صقر له رأس انسان . ويعنون بذلك ان النفس بعد الموت تطير من هذا العالم الذي لا ترجع اليهِ . ويدلون على الكا بيدي انسان وذراعاها مرفوعتان على زاوية قائمة على العضدين . وهي عندهم صورة الجسد تنسو ولكنها صورة ايثيريَّة بالغة في الرقة حتَّى لا ترى . والبا او النفس ايثيريَّة ايضاً ولكنها في جوهرها اشرف جدًّا من الكا

والكا يتولى افعال البدن الاعتياديَّة التي هي غير خاضعة للارادة . وبعد الموت يبقى حيًّا في الارض وخصوصاً في القبر وما جاورهُ . وتبقى لهُ الاحتياجات التي كانت لهُ قبل ان فارق الجسد . فيجوع ويعطش ويتعب ويطلب الراحة والطعام والشراب . وهو معرَّض للموت باسباب الموت الاعتياديَّة ولكنهُ اذا مات فموتهُ الثاني هو العدم . وكانوا يحافظون على الساهو اعني الجسد الجسماني لكي يبقى الكا فيهِ ويحفظونهُ بالتجفيف البسيط تلك كانت طريقتهم فيهِ الى آخر الدولة الثانية عشرة . وبعد ذلك اعني من سنة ٣٠٠٠ قبل الى سنة ٧٠٠ بعد المسيح كانوا يحنطونهُ بطرق مختلفة

وسواء اراد المصريون ذلك ام لا فان تحنيط اجساد البشر والحيوانات المقدسة هو من الوسائل الصحيَّة العظيمة وقد كان من الطرق الواقية من انتشار اوبئة الحمَّى التيفوئيديَّة الصادرة عن ارتشاح جراثيم هذا الداء من المدافن الى الآبار والترع التي يستقى منها

وكان النيل يدعى هابي اي الخفي لان اصل قدماء المصريين من الشمال لا الجنوب في ما يرجّح فكانوا يجهلون اصل النيل . وكانوا يعتقدون ايضًا انهُ الهٌ فكانوا يجتنبون كل ما ينجسهُ ولذلك لم يكتشف حتّى الآن مجرى من المجاري التي تسير فيها الاقذار لتصب فيهِ . والقناة الوحيدة التي اكتشفها المستر بتري ممتدة الى النهر هي في تانيس وهي تمتد من تحت مذبح الهيكل العظيم الى قناة مسدودة والمرجح انها كانت تصب في البحر

والظاهر ان المصريين القدماء كانوا يتقلون اقذارهم بوليًا ويستخدمونها للزراعة . ويحمل على هذا الظن ما شاهدهُ المستر بتري لدى الحفر في آثار مدن المصريين القديمة من نظافة شوارعها وبذلك تمتاز عن المدن التي بناها اليونان لان في شوارع هذه قشورًا من كل نوع وقطع عظام وغير ذلك مما يدل على عدم نظافتها . وكان المصريون يبنون بيوتهم من الطوب النيء فكان يلزم تجديدها من وقت الى آخر وكانوا يبنون البيوت الجديدة على اطلال القديمة ومن ثمّ يرى انهُ كان لا بدّ من ان يأتي زمن تصبح فيهِ المدن اعلى من اعظم هيكل وهذا قد شوهد فقد ذكر هرودتوس ان مدينة بوباستس كانت مرتفعة جدًا حتّى كان الاهالي يستطيعون ان ينظروا من بيوتهم الى داخل فناء الهيكل . ولا شك انهُ كان يصعب تغيير بناء الهياكل ولهذا نجد اليوم كثيرًا من الهياكل المصريّة القديمة يغمرهُ الماء عند فيضان النيل لان مجراهُ يرتفع خمس عقد كل مئة سنة

وكان على كل مصري ان يزيل ما يراهُ في النيل من الرمم والاقذار لانها في اعتقادهِ تنجس الماء . واذا رأى فيهِ جثة إنسان او حيوان رفعها ودفنها بكل اجلال وهو يعتبر ان وقوع ذلك في ارضهِ شرف عظيم لهُ والمظنون ان حكمة الكهنة هي التي بثّت في عقول العامة هذه الاعتقادات والّهت النيل لتحفظهُ نقيًا من كل الادران المضرة بالصحة . ونحن اليوم لو حذونا حذوهم باي وسيلة كانت لوجدنا النيل والترع اقل ضررًا مما هي الآن

وكانوا يحنطون اجساد الحيوانات السافلة ايضًا كالثور والتمساح وابن آوى والكبش والقط والصقر الخ وكان لهم طرق مختلفة للتحنيط واشهرها الطريقة الآتية : يستخرجون الدماغ من الانف بواسطة آلة عقفاء ويضعون مكانهُ بعض المواد المضادة للفساد . ثم يشقون الخاصرة اليسرى شقًا مخيًا طولهُ ثلاثة او اربعة قراريط من امام الضلع الكاذبة الى الاسفل والامام حتّى شوكة الحرقفي المقدم العليا ويستخرجون الاحشاء من هذا الشق ويملأون التجويف بالمرّ والاقاقا ثم يغسلون الامعاء وسائر الاحشاء بمواد مزيلة للفساد ويضعونها في لجرين آنية مع مواد مضادة للفساد . وتوضع الجثة في النطرون مدة سبعين يومًا ثم تغسل

وتلف بعصائب وترد الى الاهل بعد ان يتقاضوا اجرة التحنيط نحو ٣٤٠ جنيهاً

واما الطريقة الثانية فارخص ونفقتها نحو ٨١ جنيهاً . وكيفيتها انهم يحقنون زيت الارز في الامعاء ويقال انهُ يذيبها بحيث يمكن استخراجها من دون شق الجسد ثم يضعون الجسد في النطرون حتَّى يجف ويغسلونهُ ويلفونهُ بالعصائب

واما الطريقة الثالثة فكانت نفقاتها شيئاً لا يذكر فكانوا يملحون الجسد فقط مدة سبعين يوماً او يغلونهُ في القار

وكانوا يغطون شق الخاصرة بصفيحة رقيقة عليها صورة عين . وفي عصر الدولة التاسعة عشرة (قبل المسيح بالف واربعمائة سنة) جعلوا يلبسون بعض اجزاء الجسد صفائح ذهبيَّة وينضمون الاصابع معاً لسقوط الاظفار . وفي عصر اليونان والرومان الذهب يبتدئ من سنة ثلثمئة قبل المسيح ويمتد الى القرن الاول بعد المسيح كانوا يضعون صفائح الذهب على اللسان او الفم ويحنطون البدن المحنط ممدوداً على طولهِ واليدين منصالبتين على الصدر او مبسوطتين على الأوربين

وقد قال منتو الكاهن المصري المؤرخ الذي نشأ في عصر بطليموس فيلادلفوس (سنة ٢٥٠ قبل المسيح) ان بلاد مصر لم تشتهر في علم من العلوم كما اشتهرت في علم الطب وقال ان الملك « تتا » وهو الملك الثاني من الدولة الاولى (٤٦٩٠ سنة قبل المسيح) كتب كتباً في التشريح والجراحة وعمل عمليات جراحيَّة بحجر الصوان

وقد وُجد في خرائب مدينة طيبة درج مصري قديم كتب قبل ميلاد موسى بنحو مئة سنة وهو المعروف الآن بدرج ابرس وفيهِ نبأٌ تام عن الطب المصري القديم . فالامراض المعروفة في ذلك العهد موصوفة فيهِ وصفاً دقيقاً مع العلاجات النافعة فيها . ومنهُ فصل يبحث في الفزيولوجيا ومن العجيب ان القلب مذكور فيهِ انهُ مصدر الفعل الحيوي ومقرهُ وانهُ تخرج منهُ عدة اوعية وتنبث في اجزاء الجسد المختلفة توزع الدم والحياة على كل عضوٍ . واربعة من هذه الاوعية تذهب الى الخدين واربعة الى الصدغين واربعة الى الراس واربعة الى الانف واربعة الى الاذنين وستة الى الذراعين وستة الى الفخذين واثنان الى القطن واثنان الى الكليتين واربعة الى الكبد واربعة الى الامعاء واثنان الى الرئتين واربعة الى الظهر . فهذا النظام الفزيولوجي يصح ان يقال عنهُ انهُ مقدمة اكتشاف دورة الدم

وجانب عظيم من الكتاب مخصَّص لطب العينين . ومن الادوية الموصوفة فيهِ مرهم اصطنعهُ كاهن أون (اي المطريَّة) الاعظم . ومرهم آخر لاحد اطباء جُبَيل وقد كان هذا

الرجل من كبار اطباء امراض العيون وكان ذائع الصيت حتى كان يقصد اغنياء المصريين لمداواة عيونهم

وكانت مركبات الادوية شبيهة بمركبات الاقراباذين اليوم . وقد ترجم بعضها الاستاذ ابرس واكثرها لمداواة عسر الهضم او ألم المعدة . وهذا دواء من ادويتهم . خذ من الكمون جزءا من اربعة وستين جزءا من الدرهم ومن دهن الاوز جزءا من ثمانية اجزاء من الدرهم ومن اللبن ثلاثة اخماس اللتر اغل واسكب ثم كل . . و هذا : خذ من حب الرمان ثمن درهم ومن الخل المحلو ثلاثة اخماس اللتر ومن ثمر الجميز ثمن درهم اغل واسكب ثم اشرب . . ومن الادوية لتحريك المخانة الدواء الآتي : خذ من العسل . . . ومن مسحوق الخرنوب . . . ومن مسحوق البخمت . . . . واصنع ذلك حبة . ومن الادوية المسهلة هذا الدواء : خذ من « السنط » ثمن درهم ومن العسل ثمن درهم وامزج وكل

وكان في هليوبوليس (المطرية) مدرسة طبية منذ قديم الزمان ويقال ان افلاطون وغيره من فلاسفة اليونان تلقوا الدروس الطبية على اساتذتها ويظن انه كان في مدينة سايس (صا الحجر) مدرسة اخرى طبية ومنها اقتبس مؤلف درج ابرس بعض ما كتبه في درجه وهذا الدرج هو كتاب الصناعير احد الكتب الطبية الستة التي اشار اليها اقليمندس الاسكندري

وقد اكتشف الاستاذ سايس منذ بضع سنين بين بقايا مكتبة نينوى الشهيرة التي في الآن في المتحف البريطاني الواحا من كتاب بابلي في الطب يستدل منها على انه كان في بابل مدرسة طبية مثل مدرسة مصر غير ان البابليين لم يتركوا الخرافات في ما يتعلق بالامراض واسبابها كما تركها المصريون . فكان البابليون ينسبون الامراض احيانا الى قوات شيطانية ويصنون لها ادوية مختلفة مركبة من عناصر كثيرة . والظاهر ان علم الطب في مصر كان ارقى منه في بابل واشور لان البابليين كانوا كالصينيين يعتقدون انه كلما زادت المشقة في استحضار الدواء زادت منفعته فلا يستغرب ان كورش استدعى طبيبا من مصر لمعالجة امه ولم يسلمها لاطباء بابل ولا نعجب لاطناب هيرودتس بحذاقة الاطباء المصريين فان درج ابرس دليل على ان صناعة الطب في مصر كانت قد تخلصت من الاعتقادات الخرافية قبل خروج بني اسرائيل من مصر واصبحت اعمالها مبنية على الاحكام العقلية وذلك من الادلة على ان عصر موسى لم يكن عصر جهل وتوحش كما يظن البعض ولكنه كان عصرا يمكن ان يقال فيه انه لا يقل عن عصرنا في التمدن وتوفر حاجيات الحياة . فالدواء كان يؤخذ عندهم

شفاء المرض واما التعزيم فكان لكي يجعل فعل الدواء و يحسنهُ

وقد ذكر في درج ابرس ان الدرج الطبي الذي وُجد في ايام الملك خوفو كتب اولاً في ايام الملك سنت من العائلة الثانية سنة ٤٣٠٠ ق م

وكان توسرثرس الملك الثاني من العائلة الثالثة (سنة ٤٣٠٠ ق م) طبيباً كالملك تيتا وكتب وصفات طبيَّة بقيت متداولة الى القرن الاول من التاريخ المسيحي . ولدينا الآن القسم الاعظم من كتاب الطب الذي وجدهُ الملك تيتا كما اتصل الينا في ادراج اخرى

واحدث الكتب الطبيَّة التي اتصلت الينا لا يتجاوز تاريخهُ العائلة الثامنة عشرة (١٧٠٠ ق م) وقد كان الطب في ذلك العهد لا يقل تقدُّماً عما كان في عصر جالينوس في اواخر القرن الثاني للميلاد . فان الامراض المعروفة عندهم اذ ذاك كانت مقسومة ومرتبة ترتيباً حسناً واعراضها موصوفة وصفاً دقيقاً وكذلك عُلاجها . وقد رأينا ان وصفاتهم كانت تكتب كما يكتبها الآن اطباؤنا تماماً . وواحدة منها تنسب الى احد الاطباء المشهورين في جبيل بقرب بيروت وهو سامي الاصل غير ان القسم الاعظم من تلك الوصفات يُنسب الى اقدم رجال الطب في مصر الذين عاشوا في عهد العائلات الملكيَّة القديمة

وكانت الاستحضارات عندهم على اربعة انواع جرعات ومنقطات ومساحيق وحقن معدنيَّة ونباتيَّة . وقد ذكر في درج ابرس الطبي اكثر من عشرين علة من علل العين

وتوقف سير المعارف الطبيَّة في عهد الدول الوسطى او عصر الرعاة اي من العائلة الحادية عشرة الى الثامنة عشرة او من سنة ٣٥٠٠ الى ١٧٥٠ ق م وسبب ذلك انهم جعلوا على الاطباء قانوناً يقضي عليهم بالقتل اذا عالجوا عليلاً بعلاج جديد ومات فصار عندهم لمعالجة المرضى قوانين عرفيَّة مدونة في كتبهم الدينيَّة فاذا لم يستطع الطبيب شفاء عليلهِ باتباعهِ تلك القوانين لم يكن يلام على ذلك واما اذا خالف شيئاً من تلك القوانين اثناء المعالجة ومات المريض حكم على الطبيب بالموت

وفي ايام موسى سنة ١٥٠٠ قبل المسيح كان كهنة بني اسرائيل اطباءهم وكانت معالجتهم منصورة على النظافة وتجنُّب العدوى ولعل موسى اقتبس المبادئ الهجينيَّة عن المصريين القدماء وفي ايامهِ تداول فرعون معاشتين من قوابل العبرانيين ولا بدَّ من انهما كانتا مشهورتين في تلك الايام حتَّى استحقتا ان يذكر اسماهما في الكتاب المقدس والظاهر انهما تعلمتا من القوابل المصريات اللواتي كنَّ قبل تعلم العبرانيين الحروف الهجائيَّة ماهرات في فن القبالة ومشهورات في سائر فروعهِ المختلفة فقد اكتشف المستر بتري في كاهون من مدن العائلة الثانية

عشرة درجًا في صناعة القبالة

وفي اواخر ايام المصريين القدماء اخذ الناس يعودون الى السحر والطلاسم واقاموها مقام الوصفات الطبيَّة القانونيَّة فصاروا ينسبون الامراض الى فعل الارواح الشريرة. وخلف الاطباء الكهنةُ والمشعوذون فان في ليدن درجًا عاديًّا مشحونًا بالطلاسم ولاسيما معالجين العشق

وفي عهد العائلة التاسعة عشرة (نحو ١٥٤٠ ق.م) كان رعمسيس الثاني في ما بين النهرين فاتاهُ رئيس ارض بخنان بابنة له بديعة الجمال فافتتن رعمسيس بجمالها وتزوج بها ودعاها را نفرع اي المحبوبة من را كثيرًا

وبعدان عاد الى طيبة بمدة قصيرة جاءهُ رسلٌ من بخنان في طلب من يشفي شقيقة رانفرع فاستدعى رعمسيس جميع علماء الاسرار واخذ منهم ناحوتي ام حب وكان نبيهًا وحاذقًا بانامليو (اي بصناعة الدلك) وارسلهُ الى ما بين النهرين الى رئيس بخنان ليشفي ابنتهُ فلما وصل الى هناك وجدها تشكو من قوَّة الارواح الشريرة التي لا يمكن لضغط انامليو وعلاجهِ التسلط عليها فبعث الى رعمسيس في طلب الهٍ يعوذ من الشياطين فبعث اليهِ تمثال الاله خنسو احد آلهة المصريين القريَّة فاستُقبل ذلك التمثال في بخنان باحتفال عظيم وشفى الفتاة حالاً (شفاء اعتقاديًّا او عقليًّا) ونُصب الهًا في مدينة بخنان. ولا نعلم كم شفى بعد ذلك من المرضى

ولنأتِ الآن الى العصر اليوناني (نحو سنة ٦٠٠ ق م) وهنا يظهر امامنا هيسيود وهوميروس وقد قال هيرودنس المؤرخ (سنة ٤٥٠ ق م) ان هيسيود جاء قبل هوميروس وكانا كلاهما يعرفان كثيرًا من حقائق الطب المصري

وكذلك هيكاتيوس بن هيجاسندر الذي ظهر سنة ٥٦٠ ق م فهذا اقام في مصر مدة طويلة بصفة طالب علم. ولا نعلم مقدار ما اكتسبهُ هؤلاء اليونانيون من مصر لكننا لا نعسر علينا تصور ذلك اذ انهم كانوا من كبار المتعلمين ولذلك ارادوا ان يموهوا على اليونانيين بعلوم المصريين كأنها غرس يمينهم

ويمكني ان اقول ان اطباء المصريين القدماء كانوا بعد ان يدرسوا المبادئ العامة في الطب والجراحة يخصص كل منهم نفسهُ لفرع من فروعهِ فقط فكان فيهم طبيب لكلٍّ من امراض العين والاسنان والرأس والقلب والعلل الداخليَّة

وفي القرن الخامس قبل الميلاد بعث كورش وداريوس الى مصر في طلب الاطباء وكان الاول مصابًا بورم في الانف والآخر بالرمد فأرسل الى الاول طبيب لامراض الانف والى الآخر طبيب للرمد فيظهر لنا مما تقدم ان المصريين القدماء كانوا في مقدمة الامم القديمة في الطب والجراحة

والقبالة حتّى ان بعض ملوكهم الاولين كانوا اطباء وجراحين وقد ألّفوا في هذين الموضوعين كتبًا . ويذكر لنا المؤرخون المعاصرون مهارة القوابل العبرانيات في مدة اقامة بني اسرائيل في مصر في عهد العائلة الرعمسيّة ولا شك انهنّ كنّ من تلميذات القوابل المصريات اللواتي لهنّ تآليف يعتمد عليها في فن القبالة كُتبت قبل زمن الخروج بالف سنة على الاقل . اما في الجراحة فقد وصل المصريون القدماء الى درجة رفيعة من المهارة حتّى انهم كانوا يستخرجون الكتركتا من العين قبل الميلاد بثلاث من السنين وهي من ادق الاعمال الجراحيّة ونحن لم نستخدمها الاّ في هذه الازمنة المتأخرة

والمصريون ايضًا اول من تعاطى فن الكيميا وبالحقيقة ان لفظة كيميا مشتقة من اسم مصر الذي هو باللغة الهيروغليفية خامي اي الاسود والارجح انها مأخوذة من لون تربة ارض مصر

ويظهر من وصفات الاطباء المصريين الموجودة في درج برلين انهُ كان بينهم صيادلة يعرفون تركيب العقاقير وتحليلها . والارجح ان بقراط اخذ طبهُ عنهم

وقد كتب ديودورس الذي عاش سنة ٤٤ ق م ان المصريين القدماء كانوا يعتمدون كثيرًا على الطب المنعي فكانوا يعتمدون على الحميّة لمنع الامراض وكانوا يستخدمون الحقن والمقيئات حتّى ان منهم من كان يستعمل المقيء يوميًّا ومنهم كل ثلاثة ايام او اربعة

وكان الختان شائعًا عند المصريين في عهد الدولة الرابعة سنة ٣٢٠٠ قبل المسيح والارجح انهُ كان معروفًا عندهم قبل ذلك الحين بازمان ويظن هيرودوتس ان المصريين هم اول من استعملهُ وقد امتد منهم الى الاماكن الاخرى ولكني اظن ان الختان نشأ بين الشعوب على الفطرة بالاستقلال بعضها من بعض لسبب صحي اكثر منهُ لسبب ديني فان الغرلة ليست ضرورية بل وجودها مضر ولا سيما عند اهالي النظافة

ويمكننا تتبع الختان من الصين الى راس الرجاء الصالح وهو شائع في جزائر البحر الجنوبي في الهند الغربيّة والمكسيك وكذلك بين بعض قبائل اميركا الجنوبيّة وقد اكد هيرودوتس ان العبرانيين والفينيقيين والاثيوبيين والكلخيين والمكرونيين والحثيين قد تعلموا طريقة الختان من المصريين واضاف بوسينوس العرب اليهم . والاسرائيليون يختنون اولادهم في اليوم الثامن من ولادتهم فاذا اتفق انهُ سبت لم يتوقفوا عن الختان وذلك دليل على المنزلة التي للختان في الديانة الاسرائيليّة

ولم يزل الختان مستعملاً عند الاقباط والحبش من المسيحيين وقد كان المصريون يعدون اليونانيين نجسين لانهم كانوا يأكلون لحم الخنزير ولا يستعملون الختان